بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الرابع عشر

٢٢- ٢٥ شعبان ١٤٢٨هـ/ ٤- ٧ أيلول ٢٠٠٧م

سمو الحب في القرآن الكريم وآثاره الإنسانية

أ.د. وهبة مصطفى الزحيلي

عمّان - المملكة الأُردنيّة الهاشميّة

سمو الحب في القرآن الكريم وآثاره الإنسانية

أ.د. وهبة مصطفى الزحيلي

تقديم

الحمد لله الذي أضاء النفوس المؤمنة بالإيمان، والصلاة والسلام على معلِّم الناس الخير، وعلى آله وصحبه الهداة البررة ومن تبعهم بإحسان، وبعد:

الحب الصادق: يحتضن كل المعاني الخيِّرة، والمشاعر الإنسانية الكريمة، وينبت في النفس كل أصول الحياة الآمنة، فيحس بطعمها ومذاقها، ويوقد جذوة الإيمان الصلب، لأنه قبس من نور الله، وسراج يضيء دروب المستقبل، ويفتح نافذة الخير، ويغلق باب الشر.

الحب وخلجاته: حس خالص بقيمة الإنسان الكبرى، وبقدسية الشراكة الإنسانية، وإشراقة الأخوة المتينة العُرا بين بني الإنسان.

الحب الوقّاد: شعور كريم بقيمة محبة الله من عباده، ومحبته لخلقه وعياله، ومحبة الوجود الإلهي والإنساني، ومحبة قيم الحق والخير والجمال والعدل، ليرتاح الناس ويتخلصوا من نزعات الشر والخصام، والنزاع وصراع المصالح، ويرسخوا معاني السمو فوق الذات (أو الأنانية).

الحب الصحيح: عاطفة جيَّاشة موضوعية، وإحساس وجداني عميق، ينبض بالمشاعر الخيِّرة، ويوجه الإنسان إلى تنمية شخصيته والاعتزاز بها، فتمتلئ بالصفاء والسلام، والطمأنينة والثقة، ويكون الإنسان حينئذ أخاً كريماً للإنسان، في السراء والضراء، لا ذئباً يفترس مقومات الآخرين ومقدساتهم.

الحب في الميزان الصائب: هو حب مصلحة الآخرين، كمحبة مصالح الإنسان ذاته، وهو بعيد عن كل ألوان الخيانة والأطماع، والاعتداء على شرف الغير، أو جعله فريسة اللذات والأهواء والشهوات الهابطة أو تخريب مقدرات الآخرين، ونشر الفوضى والإباحية والدعارة.

الحب الخالد: هو الانفعال بحب الفضيلة، وكراهية الرذيلة، والبعد عن كل أوضاع التهور والضياع والشتات.

الحب السامي: هو تقديس الذات الإلهية من غير مطمع عاجل في الجنة، أو خوف من النار.

والحب الاجتماعي: إحساس بمشاعر الآخرين، والإسهام في حل مشكلاتهم، وإنقاذهم من غائلة الفقر والمرض والجهل، والترفع عن ممارسة مختلف أنواع السيطرة الجامحة، والاستبداد والطغيان، والتورط في المساس بالوجود الإنساني، وإهدار كرامة الإنسان، والاعتداء على حقوقه في الحرية والعدل والمساواة وحب الحياة، وترك مصادرة تصوراته الإنسانية النابعة من عقله ومنطقه، ومنع الحيلولة دون المشاركة في الإبداع والعطاء، وتفعيل الطاقات والإمكانات البشرية من أجل إرساء منجزات الحضارة وتقدم المدنية.

الحب بكلمة واحدة: سمو المشاعر والعواطف البعيدة عن النفعية والأطماع المادية، لتحقيق رخاء الإنسان واستقراره، وسلامة نشاطه، وتنمية ذاته وقدراته، وعيشه بسعادة ووئام.

خطة البحث:

- تعريف الحب وإدراك مدلوله وحقيقته المطلقة.
- مضامين الحب في القرآن المجيد.

معايير الحب في توجيهات القرآن وشريعة الله ﷻ ودوافعه:

١- ترسيخ قاعدة الحب لله تعالى لتحسين علاقات الناس مع بعضهم بعضاً.

٢- ارتباط عاطفة الحب بالإيمان والتكليف الشرعي.

٣- تلازم عاطفة الحب مع كل التصورات البشرية وأنماط السلوك الإنساني.

٤- التميُّز بالإخلاص والسمو والتجرد عن النفعية.

٥- التوفيق بين محبة النفس ومحبة الغير.

آثار الحب في الإنسانية:

١- الاندفاع إلى أداء الواجب واحترام الحقوق.

٢- جعل المحبة أو المودة أساس العلاقات الإنسانية.

٣- بناء جسور الثقة والظفر بالغاية الشريفة.

٤- تحقيق قاعدة التعايش السلمي والأخوي بين الناس كلهم.

٥- التحرر من الخوف والكراهية والأحقاد وأمراض القلب أو النفس.

٦- إشاعة فضيلة المودة والسماحة.

٧- توفير مظلة الأمن والسلام بمختلف أشكاله.

٨- الترغيب بكل ألوان البر والإحسان.

٩- حب الخير العام ومقاومة الشر والفساد.

١٠- إحقاق الحق وإبطال الباطل.

الخاتمة.

تعريف الحب وإدراك مدلوله وحقيقته المطلقة:

جاء في الصحاح للجوهري: الحُب: المحبة، وكذلك الحِبّ، والحِبّ: الحبيب. وفي القاموس المحيط: الحُبّ: الوداد كالحِباب والحِبّ بكسرهما، والمحبة، والحُباب بالضم.

دل ذلك على أن الحب: هو الوداد، وهو من أسمى أوصاف الإنسان، فهو شعور كريم في الإنسان، أودعه الله تعالى فيه، لا اختيار له في تحصيله، ينعكس في علاقة وجدانية بين الإنسان وغيره، تدفع إلى الألفة والطمأنينة والاحترام، ولها ثلاثة أوجه هي حب الحقيقة، والخير والجمال.

وحب الحقيقة يدفع العالم إلى البحث والتعمق، وحب الخير يوجه المحسن إلى البذل والتضحية، وحب الجمال يبعث الأديب والفنّان والعاشق إلى بذل أقصى الجهد والمال لإرضاء المحبوب[1] .

وجاء في الموسوعة العربية الميسرة: الحب في التصوف: الأنس بذكر الله وطاعته، والنظر إلى عظمته وجلاله، ثم الانتهاء إلى الفناء في المحبوب، والمحبوب الأول من الخلق محمد ﷺ، وفوقه الخالق، قال الله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤] ويقول الشلبي من المتصوفة: سميت المحبة محبة، لأنها تمحو من القلب ما سوى المحبوب .

ومن تأمل بهذه المعاني، أدرك أن الحب: صفة نفسية تجعل القلب يتعلق بحبيبه، وهذا المعنى يدل على استيلاء عاطفة الحب على القلب أو النفس، وتلك العاطفة توجه الإنسان إلى المحبوب . والمراد من هذه المعاني هنا هو المعنى اللغوي، الذي ينعكس على سلوك الإنسان وميوله، فيجعله رهين المحبوب، فيستعذب الهوى، ويدفعه الشوق إلى حبيبه والتعلّق به، وينسى كل ما عدا ذلك من مصالح ومال وبنين وغيرها من الموجودات، وهو ما يسمى بالحب العذري[2]، أي الطاهر النقي العفيف الذي قال عنه الإمام البوصيري في بُردته:

يا لائمي في الهوى العذري[3] معذرةً مني إليك ولو أنصفت لم تلم

وهذا الحب أسمى الأنواع، وهو ينبئ عن كمال الدين وصفاء السريرة وحب القرب من المحبوب قرباً معنوياً لا تشوبه شائبة النقص أو العيب، وهو حقيقة مطلقة لا تتجزأ ولا تزول، بسبب الصدق والإخلاص والتجرد عن النفعية المادية .

(1) الموسوعة الإسلامية الميسرة: ٨١٧/٤ وما بعدها .

(2) هو نسبة إلى بني عُذْرة قبيلة قد اشتهرت رجالهم بوفور العشق، ونساؤهم بفرط العفاف (شرح الشيخ خالد الأزهري لقصيدة البردة ص٨) .

(3) وهو الهوى المنسوب إلى بني عُذرة قبيلة مشهورة باليمن يؤدي بهم العشق إلى الموت لصدقهم في الحب، ورقّة قلوبهم (حاشية الباجوري على متن البردة: ص٨ ، المطبعة اليمنية بمصر) .

مضامين الحب في القرآن المجيد :

الحب في القرآن الكريم ذو مضامين جوهرية رائعة، تلتقي في مصب واحد ، وتدفع الإنسان إلى التفاني والتضحية في إرضاء المحبوب، والعمل المستديم في التزام منهج الحب، وتكوين الطاقات والجهود، وبذل أقصى الوسع في سبيل الغاية الكبرى وهي غرس الإيمان الحق في النفس البشرية، وإصلاح الإنسان وتحقيق سعادته الغامرة في الدنيا والآخرة. وهذه أمثلة من آي القرآن في شأن الحب المتميز بالسمو.

١- تقوية العلاقة مع الله تعالى وجعلها متبادلة بين الله وعباده المؤمنين به:

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال سبحانه: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤] هذه موازنة بين حب الوثنيين أصنامهم التي لا تضر ولا تنفع، وبين حب المؤمنين لربهم الخالق الرازق المهيمن الذي إليه مصير الخلائق.

وفي آية أخرى تدل على محبة الله لعباده ورعايته لهم هي: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ .. ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي إن الله تعالى ناصر عباده المؤمنين، ونصره لهم لمحبته إياهم ورعايته لهم. وهذا يستوجب تقديم محبة الله ورسوله على أي حب لقوله ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه: " ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار "[1].

٢- محبة الناس جميعاً مسلمين وغير مسلمين ومحبة الخير والسعادة لهم، واقتران المحبة والود بالسماحة والإحسان وفعل الخير وتطبيق العدل، قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ

[1] أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، وفي حديث آخر متفق عليه عن أنس أيضاً: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله ومن نفسه والناس أجمعين ".

﴿تُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨] أي العادلين في الحكم والمعاملة.

٣- المحبة التي تدفع إلى الموالاة والنصرة والرعاية والتعاون بين أهل الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ..﴾ [التوبة: ٧١] هذه المحبة منشؤها الإيمان بضرورة الدعوة إلى الحق والخير وإرساء معالم التوحيد لله تعالى حباً في إسعاد الآخرين.

٤- تقديم محبة الله سبحانه على أي شيء في الوجود، لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] وهذا لبناء عرش المحبة الخالصة وإرضاء المحبوب في أمره ونهيه، والتفاني في سبيل إعلاء كلمته: كلمة التوحيد والحق والخير والعدل، لأن المحب الصادق يتفانى في طاعة المحبوب والعمل بمنهجه وشريعته وهو الله سبحانه.

٥- محبة النبي ﷺ لأمته ورحمته بهم ورأفته بأحوالهم، وحرصه على مصالحهم، حتى يلتزموا جادة الاستقامة، وهو يشق عليه وقوعهم في الحرج والمشقة، ويطلب تحقيق اليسر في تكاليفهم، قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨] فما أروع محبة القائد لأتباعه ؟! والمحبة التي تتطلب توافر الرحمة والرأفة هي من أجل بناء الثقة ودوام الصلة والمودة.

٦- ظفر المحبين باللطف الإلهي: لقوله تعالى: ﴿يَعِبَادِي﴾ في كثير من آي القرآن الكريم لينعم المحبون بلطف الحبيب، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ...﴾ [البقرة: ١٨٦] وقال ﷻ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر: ٥٣] فما أروع معاني الرحمة والمحبة

السامية حين ينعم الإنسان بمظلة العفو والمغفرة من سيئاته وذنوبه، وهذا يُعلِّمنا ضرورة التخلق بخلق الله في معاملة الناس بعضهم مع بعض حين وجود الإساءة .

هذه بعض مضامين الحب الأسمى في القرآن المجيد التي لها تأثيراتها القريبة والبعيدة في بناء علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، مما يدفعه إلى اتباع منهج المحبة الصافية في مختلف جوانب الحياة الإنسانية، كما سيأتي بيانه .

معايير الحب في القرآن الكريم :

يتجلى مفهوم الحب في القرآن الكريم في تحقيق أسمى وأفضل وأشرف المعاني والمعطيات العملية والواقعية ومن أخصها : الصدق في الحب، والإخلاص، والتضحية والإيثار، والتفاني في أداء الواجب، والحرص على استمرار المودة مدى الحياة، وإنجاز العهود والمواثيق، وصون السمعة والسيرة الطيبة في الحضور والغيبة، فلا همز ولا لمز، ولا طعن ولا شماتة، ولا غيبة ولا نميمة، ولا تآمر ولا مكيدة، ولا إضمار للحقد، وإنما تكون المعاملة مشرقة طافحة بالبشاشة واليسر والسماحة وصون ميثاق الشرف وتحقيق معاني الأخوة الوطيدة، والشعور بالدفء والرعاية الكريمة، والترفع عن أوضار المادية والنفعية المدمرة لحسن العلاقات .

وتبرز هذه المعايير في آفاق عديدة، منها ما يأتي:

١ – ترسيخ قاعدة الحب لله تعالى لتحسين علاقات الناس بعضهم مع بعض:

لا تكون العلاقات الاجتماعية بين فئات الناس صادقة، ما لم يكن الحب الإنساني مجرداً عن المصلحة البحتة التي ترسم خيوط العلاقة، وتحقق أنماطها، وهذا معنى كون الحب لله تعالى، ولا يعني هذا إلغاء ملاحظة المصلحة برمتها، فإن المطلوب إذا هو صفاء المحبة ورفعتها، لا أن تكون المصلحة وحدها هي الموجّه الأساسي والعامل القاطع، فإن كل علاقة اجتماعية لا تخلو عن شائبة المصلحة، لا أن تكون المصلحة وحدها هي الرادار المؤثر والمسيطر الكلي النافذ دون ما عداه .

وهذا المعيار هو ما ركّزت عليه السنة النبوية في أحاديث كثيرة منها :

حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: "إن لله جلســاء يوم القيامة عن يمين العرش – وكلتا يدي الله يمين – على منابر من نور، وجوههــم من نور، ليسوا بأنبيــاء، ولا شهداء، ولا صدّيقين، قيل: يا رسول الله، من هم؟ قال: هم المتحابون بجلال الله تبارك وتعالى، المتحابون بجلال الله تبارك وتعالى"[١].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "إن من عباد الله عباداً ليسوا بأنبياء، يغبطهم الأنبياء والشهداء. قيل: من هم لعلنا نحبهم؟ قال: هم قوم تحابوا[٢] بنور الله، من غير أرحام[٣] ولا أنساب، وجوههم نور[٤] على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس[٥] ولا يحزنون إذا حزن الناس"، ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٦] [يونس: ٦٢].

أي إن المتحابين المخلصين هم الذين يتحابون من أجل رضوان الله، لا لنفع مادي أو دنيوي، فيحيطهم الله برحمته ورعايته، ويقيهم من شدائد يوم القيامة.

٢- ارتباط عاطفة الحب بالإيمان والتكليف الشرعي:

الإيمان الصادق هو الذي يشعل جذوة الحب لله، والحب لله من شروط الإيمان، كما تقدم من أحاديث فيها، فمن تذوق حلاوة الإيمان، أحب إخوته، سواء أكانوا من ملته، أم كانوا من إخوته في الإنسانية، لأن الجميع من مخلوقات الله، والله أوجدهم ورزقهم، وهو عليم بأحوالهم قبل أن يخلقوا، روى البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي حمزة أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه خادمِ رسول الله ﷺ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" قال الإمام النووي رحمه الله: الأولى أن يحمل ذلك على عموم

(1) رواه أحمد بإسناد لا بأس به.

(2) أظهروا المحبة في ضوء تعاليم الإسلام.

(3) قرابة.

(4) تضيء كالقمر ليلة البدر.

(5) اجتماعهم لله تعالى، لا يخافون سطوة حاكم، ولا بأس سلطان في الدنيا.

(6) رواه النسائي وابن حبان في صحيحه، واللفظ له.

الأُخوة حتى يشمل الكافر والمسلم، فيحب لأخيه الكافر ما يحب لنفسه من دخول الإسلام، كما يحب لأخيه المسلم دوامه على الإسلام، ولهذا كان الدعاء بالهداية للكافر مستحباً[1] .

وهذا مستمد من دعاء النبي عليه الصلاة والسلام لقومه: " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون "، " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " أي أن يوفقهم الله للإيمان بالله وحده لا شريك له، فهم يجهلون الحقيقة، واقتضت رحمته ﷺ أن يبادروا إلى ساحة الإيمان لينقذوا أنفسهم من الشرك .

إن الإيمان الصحيح يدفع إلى كل عمل شريف، ومنه الحب السامي لله ورسوله وللناس كافة، فهو يملأ النفس صفاء وطمأنينة وتفويضاً لخالق الكون، الذي اقتضت حكمته وجود التعدد في العقيدة والعمل والأخلاق والأرزاق وكل شيء، وعلى المخلوقين أن يعاملوا بعضهم معاملة إنسانية كريمة تعتمد على اليسر والسماحة والإحسان .

والحب خلافاً لما يظن علماء الأصول[2] من أنه ليس مكلفاً به، لأنه أمر جبلّي فطري، وإنما هو في الواقع محل تكليف وتشريف، قال الإمام الغزالي رحمه الله:

الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض، وكيف يفرض ما لا وجود له، وكيف يفسر الحب بالطاعة، والطاعة تبع الحب وثمرته، فلا بد وأن يتقدم الحب، ثم بعد ذلك يطيع من أحب، ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله ﷻ: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه . وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان[3] .

أما حب الإنسانية والناس فهو مندوب إليه كما جاء في الحديث السابق: " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" لأن الإنسان صنع الله تعالى ومن مخلوقاته، كما قال سبحانه: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨] .

(1) شرح الأربعين النووية: ص٣٩ .

(2) قال علماء الأصول: لا يجوز شرعاً التكليف بالأمور الجبلّية التي لا كسب للإنسان فيها ولا اختيار، كالفرح والغضب، والحب والبغض . . الخ (أصول الفقه الإسلامي للباحث: ١ / ١٣٩ ، ط دار الفكر بدمشق) .

(3) إحياء علوم الدين للغزالي: ٤ / ٢٥٣ .

٣- تلازم عاطفة الحب مع كل التصورات البشرية وأنماط السلوك الإنساني:

المحبة نابعة من الرحمة، والرحمة هي محور الرسالة الإسلامية المتعلقة بالأشياء والمخلوقات والجمادات كلها، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وكلمة ((لِّلْعَالَمِينَ)) كما أبانها المفسرون وعلماء السيرة[1] تشمل الإنس (الناس) والجن، والملائكة، والحيوان والطيور، والجماد، والحياة الإنسانية كلها، لأنه عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين، وشريعته خالدة إلى يوم القيامة، وهي عالمية شاملة لجميع بني الإنسان، وليست خاصة بقوم دون قوم، وإيضاح ذلك بإيجاز فيما يأتي:

أما رحمته ﷺ بالمؤمنين كما تقدم: فبهدايتهم إلى سعادة الدنيا والآخرة، ورحمته بالمنافقين بإظلالهم بمظلة الأمان من القتل وغيره، عملاً بظاهر الإسلام، وإن كانوا يبطنون الكفر، ورحمته بغير المسلمين برفع عذاب الاستئصال عنهم في الدنيا خلافاً للأقوام السابقين الذين أبيدوا[2].

ورحمته بالأهل والعيال والصبيان والمساكين والضعفاء والأيتام والخدم، كل ذلك معروف في السيرة والسنة النبوية.

وكذلك رحمته بالحيوان والطيور بمنع الضرب على وجوهها، وحرمة لَعْنها، وعدم تكليفها بما يشق عليها، وضرورة إطعامها وسقيها، وعدم فجعها بولدها أو فراخها، معلوم أيضاً في السنة والسيرة النبوية، وتحريم ذبح أو صيد الحيوان إلا لمأكلة لا عبثاً.

ورحمته بالجماد والنبات بتحريم هدم المباني، وقطع الشجر في أثناء الحرب إلا لضرورة متعينة تقتضيها ضرورات أو ظروف القتال، أحكام مقررة في شريعة الإسلام.

وتشمل المحبة كل تصورات الإنسان ومقاصده أو نواياه فيجب كونها كريمة سامية، وتشمل كل أنماط السلوك الإنساني، حيث يجب جعلها صالحة غير فاسدة، لأن الله تعالى لا يحب الفساد.

---

(1) انظر مثلاً كتاب ((سيرة سيدنا محمد رسول الله ﷺ)) للشيخ عبد الله سراج الدين: ص١٩٦ – ٢٠٧ ط حلب، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م.

(2) قال ابن عباس: ((من آمن تمت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن عوفي مما كان يصيب الأمم من عاجل الدنيا من العذاب العام)) من المسخ والخسف والقذف.

ويترتب على ذلك أنه لا يصح لمحب أن ينوي نية خبيثة، أو يعقد عقداً مشتملاً على غش أو تدليس، أو يتآمر على غيره، لأن من أحب أخلص، ومن أخلص صدق، ومن صدق لم يكذب، لأن الكذب من الفجور، والمؤمن لا يكذب، ولا يخون ولا يغش ولا يتآمر، ولا يسلك مسلكاً مشيناً أو مريباً أو يعرّض محبوبه للدس أو التهمة أو تأليب الظالم عليه.

٤- التميز بالإخلاص والسمو والتجرد عن النفعية:

العالمون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، أي إن الإخلاص في غاية الحساسية أو الشفافية، والإخلاص في الحب يتطلب تخصيص العمل لوجه الله تعالى، فلا يؤذي حبيبه، وكل شيء في الإسلام بدءاً من العبادة المقصود بها إرضاء الله، إلى أدنى تصرف خلقي أو سلوكي أو تعامل، يتطلب الإخلاص في القول والعمل، فلا يشوبه رياء أو تسمع أو قصد شهرة، أو متاجرة على حساب حبيبه، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ الآية [البينة: ٥].

إن الحب في الإسلام يتميز بالسمو في ممارسة الوسائل وفي تحقيق الغايات والمقاصد النبيلة، فلا يتملق المحب، ولا يتزلف له، ولا يزيّف الحقائق، وإنما يطلب من المحب التجرد من النفعية أو الوصول إلى أغراض مادية أو شهوانية أو سلطوية أو نحوها، لأن حب المنفعة أو شبهة المادة تعكّر العلاقة، وتمنع تحقيق صفو الود وطيب المعاملة.

وإنا نشاهد في عصرنا وقائع كثيرة وعلاقات اجتماعية عصفت بها الأغراض النفعية، والأطماع المادية، لأنها دنيّة، والحب سمو وإخلاص، قال النبي عليه الصلاة والسلام: "من سرّه أن يجد حلاوة الإيمان، فليحب المرء لا يحبه إلا لله"[1].

[1] أخرجه الحاكم من طريقين وصحح أحدهما عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٥- التوفيق بين محبة النفس ومحبة الغير:

إن ارتكاز عقيدة الإيمان بالله ورسوله يتطلب تقديم محبة الله والرسول وإيثارها على أي شيء في الوجود، لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وللحديث المتقدم: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما".

والحديث الآخر: "لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله ونفسه والناس أجمعين" وحديث ابن عباس: "أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه"[1].

وفي دعائه ﷺ: "اللهم ارزقني حبك، وحبَّ من أحبك، وحب ما يقربني إلى حبك، واجعل حبك أحبَّ إلي من الماء البارد".

فكيف يتفق ذلك مع محبة الإنسان نفسه أولاً، فإن أحب غيره فلأجل نفسه؟ والجواب: أن دائرة الإيمان تتطلب التضحية، وإيثار الأشياء على النفس، ولا تتحقق التضحية بإعلاء كلمة الله وجهاد النفس والأعداء إلا ببذل أغلى ما عند الإنسان المؤمن وهو نفسه، فيقدمها سخية طيباً بها لتحقيق جوهرية الإيمان، وساحة الإيمان تسمو فوق الماديات والمنافع الذاتية، فهذه الأشياء يكون بينها التفاضل، وتقديم الأولويات. أما الإيمان الحق بالله ورسوله فهو فوق جميع الماديات والنفعيات الآنية، لأن ما عند الله خير وأبقى، قال الله تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

وإذا لم تكن هناك تضحية، فكيف يتحقق النصر ويكون الشهداء محشورين في زمرة الأنبياء والصدّيقين؟! وبه يفهم تقديم حب الله ورسوله على أي حب في الوجود، حتى النفس الإنسانية.

وكذلك الإحسان والإحساس بالنعم الكثيرة يجعل الإنسان عبد الإحسان، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، والله تعالى مصدر الحسن والجمال، وكل جمال محبوب عند مدرك

[1] أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.

الجمال كما قال الغزالي[١] مستدلاً بالحديث الثابت: " إن الله جميل يحب الجمال "[٢]، أي جمال الخلقة والتكوين، فيكون الله لا محالة محبوباً ، وحب الرسول ﷺ هو كما قال بعضهم عين محبة الله، لأنه حبيب الله، ومحب المحب محبوب .

آثار الحب في الإنسانية:

ليس الحب في المفهوم القرآني عاطفة مشبوبة أو عاصفة عابرة تنشأ ثم تتبدد ، وإنما تتطلب مصداقية وتحتاج إلى إثبات واضح عملياً ، تترجم فيه العاطفة إلى ساحة التطبيق العملي، وإلا كانت مجرد ادعاء، وهذا لا يتفق مع الواقع، وتكون هذه العاطفة مجرد سحابة، أو تصور يطرأ على القلب، ثم سرعان ما يزول، ولا يصدِّق به أحد من الناس . وذلك يجعلنا بحاجة ماسة إلى تبيان آثار الحب، أو الأدلة العملية والبراهين الفعلية على صدق الحب وإثبات صحة وجوده . والساحة التطبيقية كثيرة الأنحاء والآفاق، أذكر منها ما يأتي:

١- الاندفاع إلى أداء الواجب واحترام الحقوق:

الحب بمختلف ألوانه وأطيافه وآفاقه يحتاج في أبسط ما يدل عليه إلى اختبار وإقناع، وتوفير الثقة والاطمئنان، وإقامة الأدلة والبراهين عليه، وفي مطلعها أداء الواجب نحو المحبوب، واحترام حقوقه وحفظ كرامته، وإلا كان محض دعوى أو ادعاءات، كالادعاءات المعروفة أمام القضاء أو التحكيم والمحكمين، وهذا ما ثبت في ميزان الشريعة في هذا المجال كما يرشد إليه الحديث الآتي: " لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال أموال قوم ودماءهم، لكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر "[٣] وقال العرب قديماً :

(1) إحياء علوم الدين: ٤ / ٢٥٦ .

(2) هذا حديث صحيح أخرجه مسلم بلفظ ((إن الله جميل يحب الجمال)) عن عبد الله بن مسعود .

(3) حديث حسن، رواه البيهقي وغيره هكذا، وبعضه في الصحيحين .

والدعاوى إن لم يكن عليها بيّنات أصحابها أدعياء

وهذه الظاهرة نجدها واضحة المعالم بين الزوجين والأولاد والأسرة والقرابة، وفي القضايا المدنية والجنائية وغيرها، فضلاً عن مألوفات المحبين والعاشقين.

وأبسط ما ينبئ عن الحب الصادق المبادرة إلى أداء الواجبات المطلوبة شرعاً وقانوناً وعرفاً، فإثبات الولاء للنظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي يحتاج إلى بينات، وكذلك توفير الحقوق واحترامها وتقدير مواقف الآخرين بحاجة إلى برهان، وهذا له أمثلة كثيرة، منها تقديم النفقة الواجبة إلى الزوجة وإعالة الأولاد، لذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: "كفى بالمرء إثماً أن يضيّع من يقوت"[1] وإذا كان هذا واضحاً في الماديات، فهو في العواطف والمعنويات النابعة من النفس الإنسانية أولى وألزم، لأن المعنويات أشد غموضاً، وأكثر دقة، ويحيط بها غيوم وسحب كثيرة، لأنها في متاهة النفس الكبيرة ومحطتها الفسيحة ذات الأسرار والعجائب، والألغاز، والغموض، والتطلعات والرؤى، بل يرتسم عليها جميع المكنونات، قال ابن عربي:

أتزعم أنك جرْم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

إن نفساً غامضة أو متشككة تقابلها نفس مثلها لا تقتنع بغير الملموس، وأول الملموسات أداء الواجب وحفظ الحق، والشرائع الإلهية والقوانين الوضعية تحدد مضامين الواجبات وأنواع الحقوق، ويتعارف عليها الناس في كل زمان ومكان.

٢- جعل المحبة أو المودة أساس العلاقات الإنسانية:

إن المحبة الصادقة تتحول إلى مودة الآخرين وتقدير مشاعرهم، ورعاية مصالحهم، وإن من أهم آثار المحبة بناء العلاقات الإنسانية على أساس من السمو والثقة والاطمئنان، والوفاء بالعهد، وإنجاز الوعد، والصدق في التعامل، والبعد عن الغش والتدليس والإكراه المادي أو المعنوي، وإبرام العقود على أساس من العدل أو التعادل

[1] أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم والبيهقي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

في التبادل، وحفظ حقوق الإنسان في الحياة، والحرية، والمساواة، والشورى، والعدل، والكرامة الإنسانية والتملك والعمل وحريته، والسلم والأمان، وغير ذلك من الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لاسيما حقوق المرأة وحقوق الضعفاء والعجزة والمعوّقين والأيتام ونحوهم.

وذلك سواء أكان الإنسان مسلماً أم غير مسلم، وسواء في حال السلم أم في حال الحرب، فتجب رعاية الفضيلة، والأعراف الصحيحة، وتوفير الكرامة الإنسانية، لاسيما الأسرى، وإقرار ما يعرف بقواعد القانون الدولي الإنساني المستمد أكثره من مبادئ الإسلام وأحكامه في القرآن الكريم والسنة والسيرة النبوية، وعلى سبيل المثال رغّب الإسلام في إطعام الأسرى، فقال الله تعالى: ﴿ **وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** ﴾ [الدهر: ٨] وقال النبي ﷺ: في شأن بعض الأسرى (ثمامة بن أثال سيد قومه): "أحسنوا إساره"[1] وحث الإسلام على إطلاق سراح الأسرى ومفاداتهم في قوله تعالى: ﴿ **فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً** ﴾ [محمد: ٤] فإذا روعيت هذه المبادئ، كانت العلاقات الإنسانية متميزة، ومستقرة، لا يعكر صفوها وسموها أخطاء الإنسان في حق أخيه الإنسان.

ويتجلى قانون هذه العلاقات في القرآن الكريم في آيات منها: ﴿ **لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿ **وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿ **لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة: ٨].

إن صفو العلاقات الإنسانية بآفاقها العديدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية والإعلامية لا يتحقق إلا بما وصفناه لا سيما تفعيل أصول الحرية، والعدل، والمساواة، أما مصادرة الحرية والإخلال بميزان العدل، ونسف قاعدة المساواة في الإنسانية، فسرعان ما يؤثر العلاقات الإنسانية ويدمرها، ويجعل البشرية تعيش في فوضى وغليان واضطراب وعصف بالحقوق.

[1] أخرجه أبو داود.

٣- بناء جسور الثقة والظفر بالغاية الشريفة:

إن نمو العلاقات الإنسانية وإشاعة الأمن والسلم والمحبة يحتاج إلى الإحساس المشترك بالثقة المتبادلة، والإقدام على التعامل بطمأنينة، وإيصال الحقوق لأصحابها دون تلكؤ ولا تهرب، ولا تغافل ولا مماطلة، وحينئذ يعيش الناس في مظلة من الاستقرار، ويتفرغ البشر لبناء حضارتهم وحفظ مكاسب مدنيتهم، فيعم الخير، ويشعر الكبار والصغار بالسعادة الغامرة، والبعد عن الصراع والمنازعات، واللجوء إلى المحاكم وفصل القضاء.

وقد نبَّه القرآن الكريم إلى منشأ الخلل في المعاملات والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية في الداخل والخارج ألا وهو أكل الحقوق وأموال الناس بالباطل، فقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

ولا يعكِّر العلاقات العامة والخاصة إلا الحقد والطمع والبغضاء والكراهية التي هي أضداد المحبة.

والحق يقال: إن الدين الحق هو الذي يدعو إلى نشر المحبة والتزام الناس بها، وإن معاداة الدين والاغتراب عنه هو الذي يزرع الشك والقلق والإرهاب ويهز كيان الإنسان، ويعصف بالقيم الإنسانية كلها كما نشاهد اليوم ونلمس. والإسلام وحده هو الذي تجاوز سقف المحبة من مجرد كونها عاطفة إلى تحقيق المودة وزرع الثقة وتمكين الناس قاطبة من التأمل في دعوته الإنسانية الشاملة القائمة على العدل والحرية، ولكن مع الحفاظ على العزة والكرامة، وضرورة مقاومة المعتدين والمحتلين والمستعمرين الاستيطانيين وغيرهم ممن لا يعرفون للعالم الآخر محبة ولا مودة، ولا حرية، ولا حقاً في تقرير المصير.

٤- تحقيق قاعدة التعايش السلمي والأخوي بين الناس كلهم:

إن عاطفة الحب يدعيها كثير من الناس، دون أن تجد طريقها إلى التطبيق العملي المهيمن على تكوين الرؤى والمقاصد كلها والمصالح الحيوية، ولا تعني عاطفة الحب الاستكانة إلى الذل والمهانة وقبول العدوان وسلب الأوطان وخيراتها، وإنما الحب الصادق هو رعاية مصالح الآخرين، وتحقيق التعايش السلمي والودي

والأخوي القائم على الحق والعدل والمساواة والتعاون من أجل خير القوي والضعيف على السواء، وهو المنهج الذي عبر عنه القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣].

إن منطق الأقوياء المستكبرين اليوم هو فرض تصوراتهم وتقاليدهم وأنظمتهم وفتح الأسواق الاقتصادية أمام منتجاتهم، على أساس طبقي قائم على فكرة السيد والمسود، أو عنصري قائم على تفضيل جنس على جنس، وعلى أساس الصراع الحضاري لا الحوار البنَّاء، وعلى معطيات ((العولمة الأمريكية)) أو ((الديمقراطية العلمانية)) الثقافية والسياسية والاقتصادية والإعلامية وغيرها، وطحن كل ما سواها من ثقافات محلية وأنظمة سياسية واقتصادية، وتذويب الأديان والمذاهب، وإلغاء الإسلام الحق، وتحريف القرآن، وانتزاع كل ما لا يعجبهم من غيرهم، وتغيير المناهج التعليمية على وفق أهوائهم وأمزجتهم.

فهل الحب يقتضي ذلك؟ إنه حب كاذب، وتدخل سافر، وإلغاء لوجود الآخر.

٥- التحرر من الخوف والكراهية والحقد والمرض النفسي:

إن من أبسط مدلولات الحب هو تحقيق الأمان والاستقرار، ونبذ التعصب، وإشاعة السلام، ودفن الحقد، والتخلص من الأمراض القلبية كالحسد والغضب الجامح والحقد الأسود[1] وغير ذلك مما نشاهده اليوم عند المستكبرين، وغرس محبة الخير للآخرين، والحلم، والعفو، والإحسان، والصفاء، والرفق، مع الحفاظ على حق المقاومة المشروع، فهذه أخلاق الإسلام ومبادئه التي يعامل بها المسلمون غيرهم.

إن من حق أي شعب مسالم في العالم مسلم أو غير مسلم أن يكون آمناً من الخوف والقلق، لا يتعرض لإرهاب أو قتل أو تدمير أو إرهاب، ولا يحس بأن الآخرين يحملون الحقد والكراهية لهم، فيهددونهم في أوطانهم وأموالهم وثرواتهم، ليعيشوا عيشة السعداء الآمنين غير القلقين.

[1] إحياء علوم الدين للغزالي: ٣/ ١٤٢ وما بعدها، ١٥٧ – ١٧٤.

وحبذا أن تكون هذه النظرة ليست أحادية الجانب كالموقف الأمريكي مع الدول الأخرى، وأما ما قد يقع من حوادث يتورط بها شباب متهورون، فهم لا يمثلون الفكر الإسلامي، وموقف هؤلاء الإرهابيين معقّد وبخاصة إذا عرفنا وسمعنا أن بعض المتدربين من جنود القاعدة تدربوا في تل أبيب كما ذكرت قناة الجزيرة في أوائل شهر نيسان / أبريل / ٢٠٠٧م، وهذا يعني أن الذي يدفع إلى الإرهاب في داخل البلاد العربية أحياناً هم بعض الدول الكبرى أو الصهيونية، وركيزتها الموساد، كما يفعلون في العراق.

إن مشكلتنا نحن المسلمين مع الغرب أو الشرق أو الصهيونية العالمية تكمن في مضلَّع سداسي الأضلاع الجامعة بين المتناقضات الآتية:

المادية والروحانية (مادية غير المسلمين وروحانية الشرق)، العنصرية والمساواة (عنصرية غير المسلمين ومطالبة المسلمين بحق المساواة)، الاستكبار والضعف (استكبار الدول القوية بقيادة أمريكا، وضعف المسلمين) الاستعباد أو الاستعمار الجديد والحرية (ممارسة سياسة الاستعمار الغربي أو الشرقي الجديد أو الاستيطان الصهيوني في بلادنا، وطلب المسلمين توفير الحرية للعالم) الدين أو الإيمان الحق وعدمه (معاداة الغرب أو الشرق للإسلام، وتمسك المسلمين بقرآنهم) الحق والباطل أو الصفاء والتشويه المتعمد للإسلام ووصفه بالإرهاب (تمسك المسلمين بحقهم في بلادهم وحقهم في تقرير مصيرهم، فهم أصفياء القلوب ويحبون الخير للناس جميعاً، مع إصرار الأعداء على نصرة الباطل وتشويه الإسلام بتهمة الإرهاب، بل ومحاولة تحريف القرآن).

وعلى الرغم من هذه المفارقات، نرى بعض المسلمين من القادة وغيرهم يحبون غيرهم ويعملون على حماية مصالحهم، وغير المسلمين لا يحبون المسلمين، وصدق الله تعالى حين قرر هذا من قديم في آيتين هما:

الأولى- ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ ﴾ [آل عمران: ١١٩].

الثانية- ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

٦- إشاعة فضيلة المودة والسماحة والحوار:

إن الدعوة إلى الإسلام دعوة ذات نزعة عالمية، لأن رسالة النبي ﷺ لجميع البشر، كما قال الله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[الفرقان: ١] وقال سبحانه: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[الأعراف: ١٥٨].

ومن أوّليات أو أصول قبول الدعوة الإسلامية: المسالمة والأمن والمساواة بين الشعوب، وإضمار المحبة والمودة لجميع الأمم الأخرى غير المسلمة، والسماحة في التعامل، والحوار، والتعاون الإنساني: الاقتصادي والاجتماعي بين أبناء الأسرة الإنسانية الكبرى، ليتحقق مناخ القبول، والحوار، ومحاولة الإقناع وبيان فضائل الإسلام في عقيدته وعباداته ومعاملاته وأخلاقه وقيمه ومبادئه واحترامه الفرد والجماعة، وصونه الكرامة الإنسانية، وحفظ حقوق المرأة والرجل على حد سواء، ومنهم العربي وغير العربي، وقد عمّ الإسلام العالم بمراعاة هذه الأصول والمنطلقات الأساسية وبالانفتاح على الأمم والشعوب الأخرى.

وأي دعوة لا تحتضن هذه الأصول، فهي دعوة عرجاء أو عوجاء، أو محكوم عليها بالإخفاق والجمود، والتقوقع أو الانغلاق، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

ويظهر الفرق واضحاً في هذا بين الإسلام واليهودية القائمة على الانغلاق والعنصرية، فالإسلام دين السماحة والانفتاح والحب أو المودة لجميع مخلوقات الله، ودين محبة الخير والسعادة لجميع الناس، لا يألف عنصرية أو انغلاقاً، وإنما دعوة الإسلام للناس جميعاً، لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

٧- توفير مظلة الأمن والسلام بمختلف أشكاله:

الأمن والسلام أساس بناء النهضات، وعماد الحضارات، وتقدم المدنيات، ونعمة الأمن تقترن عادة مع نعمة الإيمان، كما قال الله واصفاً أهل الإيمان بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[الأنعام: ٨٢].

والسلام مطمح إنساني للفرد والجماعة، وهو يعكس الرغبة الصادقة والمحبة الحقيقية للعالم أجمع، لذا أمر القرآن الكريم به، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة: ٢٠٨] ولكن السلام لا يعني الاستسلام، أو إيقاف مقاومة المعتدين.

ويلاحظ التقابل بين السلم والإيمان، وبين الرعب والقتال أو العنف أو إغراءات الشيطان، فالشيطان يوقد نيران الحروب والمنازعات، وغير المؤمنين هم الذين يتبعون الشيطان.

وأما في نطاق التوجيه النبوي وتبيان القرآن الكريم، فإن النبي ﷺ قال: "لا يحل لمسلم أن يروّع مسلماً "[1] أي ولا غير مسلم، فإنه إنسان مخلوق لله، ومن حقه الحياة الآمنة.

والأمن والسلام مطلوبان في داخل البلاد وخارجها، لتحقيق التكامل والانسجام، بحيث لا يكون في الواقع اضطراب أو قلق أو صدام وصراع في داخل أي بلد، مع توفير الأمن في الخارج، ولا العكس، لأن الخلل والعدوى يسريان إلى الشعوب كلها، فإذا وجد انعدام الأمن أو افتقاد السلم في بيئة، فلا بد من امتداد شرارات الخوف والقتل والحرب أو آثارها الاقتصادية أو الاجتماعية إلى بيئة أخرى، لعدم توافر الاستقرار أو الاطمئنان على سلامة شؤون التبادل.

٨ – الترغيب بكل ألوان البر والإحسان:

لا ينكر أحد أن آيات القرآن الكريم الكثيرة من أجل تفعيل قاعدة التعاون والتآخي الإنساني تدعو إلى حب الخير (أو البر) وفعله، وممارسة الإحسان للناس جميعاً في القول والعمل.

والبرّ كلمة جامعة لكل ألوان الخير الاجتماعي، قال الله تعالى: ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى

[1] أخرجه أحمد وأبو داود، وهو صحيح عن مجموعة رجال من الصحابة الكرام.

﴿ ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والنفقة المباركة المدفوعة للأهل والقرابة هي تاج البر، قال الله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢].

والإحسان في القول والعمل هو فوق البر، وزيادة عليه، قال الله تعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣] ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ [النحل: ٩٠].

وثمرة الإحسان وفضيلته تعود أولاً للمحسنين، قال الله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء: ٧].

وإذا توافر البر (الخير) والإحسان، ملك الإنسان غيره ملكاً معنوياً أو أدبياً، بفضله، لأن الإنسان عبد الإحسان. والإحسان هو أحد أسباب إيجاد المحبة، فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها[1].

وإذا عمَّ الخير الناس كانوا في رخاء ومحبة واطمئنان، وكانت صحتهم نضرة، وحياتهم سعيدة، وعلومهم ومعارفهم وفيرة، وابتعدوا عن ساحات الفقر والجهل والمرض، وهذا أول مقومات الحياة الكريمة العزيزة.

٩ - حب الخير العام ومقاومة الشر والفساد:

الإسلام دعوة إصلاحية شاملة، وجدت لإصلاح البشرية، وإسعادها في الدنيا والآخرة، بالإيمان الحق والعمل الصالح، ومن أهم الأعمال بعد أداء العبادات المفروضة هو ترغيب الناس في الخير، وبذل المعروف، وتعاطف الناس وتراحمهم، وإنقاذ الضعفاء، ورعاية الفقراء، وتقدم الحياة، ونهضة البشرية، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

[1] إحياء علوم الدين ٤ / ٢٥٥ - ٢٥٦.

ودعوة الإسلام إلى تحقيق التكافل الاجتماعي وإسهام الدولة في تحقيقه من أهم مباني النظام الاقتصادي والاجتماعي، فإذا عم الخير استراح الناس، وكانت حياتهم سعيدة، وهو مقصد من مقاصد الشريعة العامة، لأن فعل الخير والإحسان وتعويد الناس السخاء، والإقلاع عن البخل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقاومة الشر والفساد هو منهج أساسي في الإسلام، لأن ظاهرة انتشار الفساد، وكثرة الشرور، تقوّض بنية المجتمع، وتهدد الأمة بالضياع والدمار.

وأذكر على سبيل المثال نصاً قرآنياً عاماً في الترغيب بالخير والإحسان وهو: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦]

ومقومات الحضارة وبناء الحياة في منظور الإسلام هي أربعة نص عليها القرآن الكريم، وهي العمل الطيب للآخرة، وإصلاح العمل في الدنيا، وتعميم الإحسان والخير، واجتناب الفساد، وهي مجموعة في الآية القرآنية الكريمة: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧].

وإذا صلحت الحياة بهذا المنهاج أقبل الناس على فعل الخير، ومقاومة الشر، واجتثاث أصول الشر بقدر الإمكان.

١٠- إحقاق الحق وإبطال الباطل:

إن ميزة الإسلام الكبرى إذا قورن بالمسيحية دين المحبة، واليهودية دين التعصب والعنصرية هي أنه دين الحق، والحق رمز الصمود والثبات والقوة والمجد، والباطل عنوان التخلف والضياع والدمار، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [الصف: ٩].

وفي آية أخرى تحدد منهج الإسلام القائم على الحق في العقيدة أو الإيمان، وفي العبادة والأخلاق والمعاملات وتبيّن ضرورة ترسيخ مباني الحق في توحيد الله وإصلاح الحياة، وإزهاق الباطل، وتصفية كل ألوان الشرك وآثاره المخزية والمدمرة، هي قول الله عز وجل: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

وقد نجحت رسالة الإسلام التي هي في قمة منارات الهداية والإصلاح في إرساء معالم الحق، حتى صار جوهراً أبدياً يحتكم الناس إليه في القضاء، وفي المعاملة الإنسانية والدولية، وفي كل أنماط السلوك، لأن كلمة الحق تنهي الصراع وتطوّق النزاع، وتجلّي صفحة الحياة، وتحسم كل مشكلات المنازعات، وتلجم دعاة الباطل والظلم والاعتداء والاضطهاد.

لن تصلح الحياة العامة والخاصة، ولا تصفو العلاقات الدولية والمحلية إلا باللجوء أولاً إلى منارة الحق، والعدل، لأن منشأ كل الحروب القديمة والحديثة وأنواع الاعتداء المشاهدة، وممارسة الاحتلال البغيض، وتدخل الأقوياء ودول الاستكبار العالمي في شؤون الضعفاء، واجتياح بلادهم، وسفك دمائهم ونهب ثرواتهم، إنما هو بسبب الإعراض عن منهج الحق، والاشتباك في شباك الباطل أو أشكاله وأنواعه.

فعلى جميع الأفراد والجماعات الاحتكام إلى مبدأ الحق ونبذ الباطل لتستعيد الحياة وجهها النضر، وتصفو الحياة بجميع مفاهيمها، وتستقر الأوضاع، ويسود السلام القائم على الحق والعدل والإنصاف، وبغير ذلك تبقى الاضطرابات قائمة، وتكون بؤر الغليان في كل أنحاء الأرض هي سبب السخونة، بل والمعكّرة لصفو العلاقات بين أعضاء العائلة الدولية، والأسرة الإنسانية.

الخاتمة

ستظل الإنسانية حيرى ما دامت تعيش في وهاد سحيقة تمتلئ بنار الحقد والحسد، والكراهية والبغضاء، والأطماع والاستكبار، وتسلط الأقوياء على الضعفاء.

ولن تصفو الحياة البشرية إلا بتفعيل عاطفة الحب والوداد، وبناء العلاقات الدولية على قاعدة راسخة من مفرزات الحب السامي في القرآن الكريم الذي يحقق للعالم الاستقرار، والرخاء، والسلم، والأمان، والعافية والتخلص من حب الاقتتال والنزاع، والعمل على نصرة الضعيف والمظلوم، والأخذ على يد الظالم والمستبد الفاجر، والطاغية المدمر.

وللحب في القرآن المجيد مضامين ومعايير: فمن مضامينه: تقوية العلاقة مع الله تعالى وجعلها قائمة على المحبة المتبادلة بين الله وعباده المؤمنين به، كما قال سبحانه: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤] ومحبة جميع الناس مسلمهم وغير مسلمهم، وتقديم محبة الله على أي حب، وكذلك محبة رسول الإسلام وخاتم النبيين ليظفر المحبون باللطف الإلهي.

وأما معايير الحب الأسمى في القرآن الكريم: فمنها ترسيخ قاعدة الحب لله تعالى لتحسين علاقات الناس بعضهم مع بعض، وارتباط عاطفة الحب بالإيمان بالله تعالى وبالتكليف الشرعي، فحب الله ورسوله فرض بإجماع العلماء، وحب الإنسانية والناس مندوب إليه، للحديث الصحيح: " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " والأخ يشمل المسلم وغيره كما أوضح الإمام النووي في شرح الحديث.

ومن هذه المعايير تلازم عاطفة الحب مع كل التصورات والمقاصد والنيات وأنماط السلوك الإنساني، واتصاف الحب بالإخلاص والسمو والتجرد عن المنفعة المادية، علماً بأن التوفيق بين محبة النفس ومحبة الغير أمر سهل، فهو لكي يتحقق مدلول الإيمان الصحيح ومقتضياته من التضحية وجهاد النفس والعدو، والانتصار على الأهواء، وتوفير العزة والكرامة للأمة، وحماية الأوطان والثغور.

إن ذاتية الحب وسموه تترتب عليها آثار خالدة في الحياة الإنسانية وهي عشرة:

الأول- الاندفاع إلى أداء الواجب العام والخاص لإثبات مصداقية الحب، وإقامة الدليل الحسي على وجوده، وإلا كان مجرد زعم أو دعوى تحتاج إلى بينة أو دليل.

الثاني- جعل المحبة أو المودة أساس العلاقات الإنسانية كلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإعلامية والتربوية والثقافية، لتشمل الأقوياء والضعفاء، والعلماء والجهال، والمسلمين وغير المسلمين، سواء في حال السلم أو الحرب، ولتصفو الحياة، وتزول التوترات والمنازعات، وتتخلص الأسرة الإنسانية من ألوان الجشع والطمع والعدوان، وينعم المجتمع الإنساني بنعمة الأمن والسلم والرخاء، ويكون الاحتكام لقواعد الحق والعدل والإنصاف والحرية وتقرير المصير هو الأساس، وتفعيل مختلف أنواع حقوق الإنسان هو المطبق عملياً، لا مجرد شعارات، أو نداءات لديمقراطية مزيفة تحتجب عند مصادمتها مع مصالح بعض القادة أو عند انتماء الناس لدينهم الحق.

الثالث- بناء جسور الثقة المتبادلة بين المسلمين وغيرهم لتحقيق الغايات الكبرى وهي عودة العلاقات الحميمة ومنع العدوان، واحترام كل جانب للآخر، وتوطيد دعائم السلم والأمن الدوليين، على أساس من الحق والعدل والمساواة والالتزام برعاية حقوق الإنسان والأوطان.

الرابع- تحقيق قاعدة التعايش السلمي والأخوي الإنساني والتعارف والتآلف والتعاون الذي دعا إليه القرآن الكريم، واستبعاد كل ما يعكر صفو الوداد والمحبة الإنسانية.

الخامس- التحرر من الخوف والكراهية والحقد والحسد والأمراض القلبية أو النفسية، لأن اللجوء إلى ممارسة أو نشر الذعر والعنف والإرهاب الذي يختلف عن حق المقاومة المشروع هو الذي يسيء للإسلام والمسلمين.

السادس- إشاعة فضيلة المودة والسماحة والحوار على أسس من الاعتراف المتبادل، ليتحقق التكامل الإنساني بين أبناء الأسرة الواحد، وتكون الأخلاق القويمة هي أساس اللقاء، وتحترم كرامة الإنسان رجلاً كان أو امرأة في أي مكان من العالم، لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَد كَرَّمنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

السابع- توفير مظلة الأمن والسلام بمختلف أشكاله: لأن بناء الحياة الإنسانية والحضارات وتقدم المدنيات يتطلب ذلك، دون مكر ولا خديعة ولا تآمر، وهذا مع ضرورة الاعتراف بحق الشعوب في طرد المعتدين والغاصبين.

الثامن- الترغيب بكل ألوان البر والإحسان في القول والعمل: فالبر شامل كل وجوه الخير والمعروف، ومنه البذل والعطاء لمسلم أو غير مسلم، بل إن الإحسان تاج الفضائل، لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ** ﴾ [النحل: ٩٠] ويدخل في هذا الأصل إسقاط الديون عن الدول المعسرة أو العاجزة.

التاسع- حب الخير العام ومقاومة الشر والفساد: فالإسلام دين اللطف والرحمة، والشفافية العالية، والمحبة الصادقة، والحساسية المتنامية، فهو يدعو إلى بناء الحياة على أسس الفضيلة، ومقاومة الشر وألوان الفساد التي تهدم كل ما بناه الآخرون. قال الله تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ** ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

العاشر- إحقاق الحق وإبطال الباطل: فإن منهج الإسلام الدعوة إلى الثوابت، ومنها الحق والعدل، وإزهاق الباطل، وتصفية العدوان، وطرد المعتدين الذين يحتلون بلادنا، وينهبون ثرواتنا، ويعيثون في الأرض فساداً.

هذه هي آثار المحبة الصادقة، ولكن مشكلتنا مع الآخرين لا سيما المستكبرين منهم تكمن في مضلَّع سداسي الأضلاع الجامعة بين المتناقضات والتي يجب الاتفاق عليها أولاً في حالات الحوار، ألا وهي المادية في الغرب وروحانية الشرق، والعنصرية والمساواة، والاستكبار والضعف، والاستعباد أو الاستعمار الجديد والحرية، والدين أو الإيمان والعلمانية أو الإلحاد، والانطلاق من معين الحق ومقاومة الباطل والشر والفساد، ففي كل مفاوضة بيننا وبين الآخرين من غرب وشرق وصهيونية، يجب الاتفاق على كيفية حل هذه المشكلات أو المتناقضات، لتستقر الأوضاع، وتصفو النفوس، والله يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم.